

الثورة الفرنسية والاسلام

الدكتور عبد الرحمن معللا

أستاذ مساعد في كلية الاداب والعلوم

الانسانية بجامعة تشرين

بعد قرون طويلة من الجفاء بين فرنسا والاسلام نتيجة الحروب الصليبية جاءت الثورة الفرنسية لتغيير الكثير من المفاهيم ولترسخ مبادئ جديدة أهمها الاعتراف بالحضارات الأخرى . وتصدى مفكرون مهذوا للثورة عن طريق مؤلفاتهم للتشويه الكبير الذي لحق بالاسلام في فرنسا . نلاحظ ذلك في كتابات كل من مونتسكيو وفولتير وروسو ، كما نلاحظ في مقدمة لترجمة القرآن الكريم صدرت عام ١٧٨٣ . وعند قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون نلاحظ رغبة واضحة في اقامة نوع جديد من التفاهم بين فرنسا والعالم الاسلامي . لقد فشلت الحملة عسكريا ولكنها تركت بذور تغيير لا يخلو من ايجابيات .

كثيرة في فرنسا من أهمها اكتشاف الاسلام على حقيقته وتحسين العلاقة بين الحضارتين الفرنسية والاسلامية .

التركة الثقيلة ومسيرة التسامح :

قبل القرن الثامن عشر كانت العلاقة بين فرنسا والاسلام شديدة التوتر تسيطر عليها ذكريات معركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتيال وتوججها احداث الحروب الصليبية . كان هناك جهل بالاسلام وتعاليمه وكان الغرب بمجمله يعيـش مرحلة من الحقد التاريخي على أمة الاسلام التي وصلت جحافلها الى مشارف دياره .

وقد انعكس ذلك في مجال الأدب كما انعكس في مجال السياسة والحروب . ففي أول كتاب أدبي عرفته فرنسا في القرن الثالث عشر وكتب بالفرنسية بدلا من اللاتينية يتهم المؤلف مسلمي الأندلس بعبادة محمد (ص) وباقامة

لم تكن الثورة الفرنسية كحدث داخلي فرنسي صفحة بيضاء من غير سوء في تاريخ فرنسا فقد عرف الشعب في سنواتها الأولى الفوضى والخوف والجوع مما مهد للاستبداد فأصبح نابليون امبراطورا الا أن هذه الثورة حملت للعالم أفكارا نبيلة وغيرت تدريجيا معالم المجتمع الفرنسي ونشرت مبادئ لا يزال العالم يحترمها ويسعى الى تطبيقها وفي مقدمتها الحرية والعدالة وحقوق الانسان .

ومن المبادئ الهامة التي رسختها الثورة الفرنسية الاعتراف بالحضارات الأخرى والسعي الى اكتشافها والاستفادة منها . نلاحظ ذلك في الكتابات والمؤلفات التي هيأت للثورة كما نلاحظه ابان الثورة وبعدها .

فبعد قرون طويلة من الصراع والتجاهل وسوء التفاهم بين الغرب والاسلام جاء القرن الثامن عشر ليغير مفاهيم

التمثيل اله (١) . وتوالت الكتابات
للمغرضة خلال القرون التالية تعمل فسي
الاسلام تشويها وتشهيرا .

الا أن القرن الثامن عشر والذي
سماه الفرنسيون بعصر الأنوار أو التنوير
Lumières قد حمل اليهم
فكرا جديدا ، وتغييرا جذريا في النظرة
الى الأمور . وسبقت الثورة الفكرية
الثورة السياسية بسنوات عديدة لتمهد
لها الطريق .

تميزت الثورة الفكرية بكتابات
عديدة لكل من مونتسكيو وفولتير وروسو
تبحث في الدين والدولة والعدالة وشؤون
تنظيم المجتمع على أسس جديدة . وأخذ
النقد يتجه أكثر فأكثر نحو السياسة
والدين باعتبارهما آنذاك وسيلة الاضطهاد
المواطنين . كان هناك مفهوم الحق
الالهي للملك Droit divin واستطاع
المفكرون أن يظهروا مدى عمق هذه
الفكرة ، كذلك لم يتورع رجال الأدب
والفكر عن انتقاد تصرفات رجال الديانة
المسيحية وقارنوها مع ديانات أخرى
وفي مقدمتها الاسلام وقامت دعوة الى
التسامح الديني ونبذ التعصب وتصور دين
لل بشرية جمعاء يقوم على مبدأ التوحيد (٢) .
ويمكننا أن نلمس التطور الذي
حدث في النظرة الى الاسلام من خلال مقارنة
ترجمتين للقرآن الكريم ودراسة مقدمتيها ؛

١- ملحمة رولاند/Chanson de Roland

ظهرت في القرن الثاني

عشر وكتبت في القرن التالي .

٢- حول تأثير الأدب في التحضير للثورة

الفرنسية انظر كتاب D. Mornet

Les Origines intellectuelles de
la Révolution. Paris, 1926

الترجمة الأولى المطبوعة بالفرنسية تعود
الى عام ١٦٤٧ وقام بها اندريه دوريه
A. Durrier قنصل فرنسا

لدى مصر ، والثانية عام ١٧٨٣م أي قبل
قيام الثورة الفرنسية بست سنوات وقام
بها كلود سافاري Cl. Savary

في مقدمة الترجمة الأولى يستخدم
المترجم عبارات شديدة القسوة في حديثه
عن القرآن الكريم والرسول ويشكك في
نزول الرسالة ويتهجم على المقدسات
الاسلامية . أما في مقدمة الترجمة
الثانية فنلاحظ تغييرا كبيرا واحتراما
متزايدا ومنصفا للاسلام يقول سافاري
" في حين يصور لنا العديد من
المؤرخين (بدافع حماس ديني يشكرون
عليه وان كان غير مستنير) محمدا
كانسان غير ذكي ، يقوم ومنذ اثنى
عشر قرنا جزء من الكرة الارضية بتقديس
ذكره واتباع دينه دون تردد " (٣) .

صحيح أن سافاري المسيحي لم يصل
الى حد الاقتناع المطلق بنبوة محمد (ص)
ولكنه يعترف في نفس المقدمة بأنه
" أحد أعظم الرجال الذين وجدوا على
ظهر الأرض " .

نظرية جديدة الى الاسلام :

في مقدمة من ساهموا في تغيير
النظرة الى الاسلام في القرن الثامن عشر
فولتير Voltaire الذي اشتهر
بدعوته للتسامح الديني والتوحيدية ونبذ
التعصب الأعمى . كتب فولتير الكثير
وهاجم التعصب في كل الأديان ويبدو
موقفه الايجابي نسبيا من الاسلام في

٣- لمزيد من التفاصيل انظر

A. MOALLA, Ed. Orient et Lumières
Grenoble, 1987.

كتابين هما (دراسة في الطبائع)
Essai sur les moeurs ورسالة
حول التسامح
Letter sur
la tolérance

في الفصلين السادس والسابع من
الكتاب الأول يبرز فولتير صورة أكثر
إيجابية للنهج العربي والإسلامي ويبيدي
بالمقابل شيئاً من الكراهية لليهود
والمسيحيين فحول موضوع اتهام الإسلام
بالإباحية يقول فولتير :

" اننا نتناسى ان كل ديانات
الشرق القديمة قد قبلت بتعدد بزوجات
وجاء محمد ليحدد بأربعة العدد الكبير
غير المحدد حتى ذلك الوقت . لقد ذكر
أنه كان لداود ثمانية عشرة امرأة
ولسليمان سبع مائة . . . الدين اليهودي
هو الذي كان اذن اباحيا ودين محمد
كان صارما " (٤)

وفي نفس الكتاب يقارن فولتير
بين واقع الإسلام وواقع المسيحية قائلاً :
" فلنتمعن في هذه الحقيقة
التاريخية وهي أن نبي المسلمين وهو الرجل
القوي الرهيب قد أقام دعائم عقيدته
بشجاعته وبسلاحه ومع ذلك فان دينه
أصبح سهلاً متسامحاً في حين أن ابـن
الله مؤسس المسيحية قد عاش متواضعاً
مسالماً داعياً الى الصفح عن الأهانات
ومع ذلك فان دينه المقدس السمح قد أصبح
بفضل جنوننا ، أقل الأديان تسامحاً
وأكثرها همجية " (٥)

وقد اشتهر فولتير بروح
الدعابة والسخرية وكان يخاطر كثيراً
وهو ينقد الدين والسياسة ومن مغامراته
المشهورة أنه ألف مسرحية بعنوان

(محمد أو التعصب) وخطر له أن يهـدي
المسرحية الى البابا آذاك الذي باركها
ثم تبين بعد ذلك أن المسرحية تتحدث
عن التعصب المسيحي وتتضمن تلميحات
تذكر بتصرفات لا يعرفها الدين الإسلامي
وقد عبر هو نفسه عن غايته من المسرحية
حين كتب :

" ان مسرحيتي تقدم تحت اسم محمد شخصية
الراهب اليعقوبي الذي وضع الخنجر في يد
جاك كليمان " (٦) .

والمعروف أن جاك كليمان هو الذي
اغتال الملك هنري الثالث عام
١٥٨٩ م لتعاطفه مع البروتستانتين .

كذلك ألف فولتير قصصاً وروايات
فلسفية تدور معظم أحداثها في الشرق
المسلم وتبرز تفوق الشرق في مجال الحكمة
والفلسفة .

اما جان جاك روسو مؤلف (العقد
الاجتماعي) فله موقف من اللغة العربية
يستحق التقدير والدراسة ففي كتابه
(دراسة في أصل اللغات) Essai sur
l'origine des langues يفرق روسو
بين لغات الشمال ولغات الجنوب فيعتبر
الأولى لغات عبودية قاسية الألفاظ
ضعيفة الموسيقى نتيجة لمناخ الشمال
القاسي في حين أن لغات الجنوب وفـي
مقدمتها اللغة العربية هي لغات الحرية
نشأت في الطبيعة وتفاعلت مع جمالها
وموسيقاها .

الثورة الفرنسية والحملة على مصر :

هذا غيض من فيض من الكتابات
والمؤلفات التي غيرت عقلية الفرنسيين
وهيأتهم لانجاز ثورتهم . لقد كانت
الثورة هي الجزء الظاهر من جبل الجليـد
المتمثل في عمل المفكرين والأدباء ولا يمكن

٤- المصدر نفسه ص ٩٢

٥- المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٦- المصدر نفسه ص ٩١

كذلك قام نابليون بعمل رمزي وهو في طريقه الى مصر فقد احتل جزيرة مالطة وحرر السجناء المسلمين فيها وكأنه أراد بذلك أن ينسى العالم الاسلامي ذكرى الحروب الصليبية وأن يبدي رغبته بلقاء الاسلام على أسس جديدة من الاعتراف والتفاهم .

جاءت فرنسا الى الاسلام هـدهد المرة مادة يدها داعية الى نسيان الاحقاد ولكن الاحتلال يبقى احتلالا مهما كانت ادعاءاته ومبرراته وانسحب الجيش الفرنسي من مصر خلفا وراءه ولحسن حظ الحضارتين بذور تفاهم ما لبثت أن أثمرت على يد رفاة الطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني الذي عرفوا كيف يستفيدون من فكر الثورة الفرنسية دون أن يتنكروا لأصالتهم ولدينهم .

فصل الحدث السياسي عن خلفياته الفكرية .
جاءت الثورة لتقضي على امتيازات النبلاء ورجال الدين وعبرت عن طموح انساني شامل عندما ألغت التقويم الميلادي السائد واستبدلته به تقويمًا جديدًا وعندما نادى بالآخري بين بني البشر دون تفریق وعندما دعت الى عبادة إله واحد هو الكائن الأسمى L'être suprême
كل هذا حدث لأن هناك فكرا ثوريا قويا كان يدفع بالثورة في هذا الاتجاه وحتى عندما قامت حملة نابليون على مصر فقد كان قادة فرنسا آنذاك وهم وريثو الثورة حريصين كل الحرص على أن تتميز هذه الحملة عن سابقتها فتبدو وكأنها حملة تحرير أكثر مما هي حملة احتلال . وهي في الواقع حملة متميزة اذ لم يشهد التاريخ مثل هذا الحشد الكبير من العلماء والفنيين في كل المجالات اصطحبهم نابليون في حملته الشهيرة وبدأوا عملهم العلمي بعيده و صولهم الى مصر .

La Révolution Française et l'Islam

En France, la révolution intellectuelle a précédé et a préparé celle de 1789. On assiste, dans les écrits qui ont paru avant cet événement, à une meilleure compréhension de l'Islam. Les traductions du Coran montrent une plus grande tolérance. Des penseurs comme Montesquieu, Voltaire ou Rousseau ont changé la mentalité des Français et ont essayé de faire oublier l'héritage négatif des Croisades. La Révolution française a appelé à la fraternité avec tous les peuples. Même dans l'expédition d'Égypte, Napoléon, en insistant sur les aspects scientifiques de cette expédition, a tenté de donner une certaine originalité à l'occupation.